مقدمات في تربية الأبناء –4–

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: 6]

قال سيدنا عليّ رضي الله عنه: قوا أهليكم نَارًا علّموهم وأدّبوهم.

قال الْحَسَنُ: يَأْمُرُهُمْ وَيَنْهَاهُمْ.. فَيُعَلِّمُهُم الْحَلَالَ وَالْحَرَامَ، وَيُجَنِّبُهُم الْمَعَاصِيَ وَالْآثَامَ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَحْكَامِ.

وقال قتادة: مروهم بطاعة الله تعالى، وانهوهم عن معصية الله.

قال البيضاوي: قوا أَهْلِيكُمْ بالنصح والتأديب.

قال الزمخشري: قُوا أَنْفُسَكُمْ بترك المعاصي وفعل الطاعات وَأَهْلِيكُمْ بأن تأخذوهم بما تأخذون به أنفسكم. «رحم الله رجلا قال يا أهلاه صلاتكم صيامكم زكاتكم مسكينكم يتيمكم جيرانكم لعلّ الله يجمعهم معه في الجنة»

أخرج الترمذي بإسناد مرسل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَا نَحَلَ وَالِدٌ وَلَدًا أَفْضَلَ مِنْ أَدَبٍ حَسَنٍ».

أيها الإخوة:

الحياة الزوجية محراب من محاريب العبادة، وتربية الأبناء باب من أبواب القرب إلى الله تعالى، ولهذا بدأنا سلسلة جديدة من الخطب عنوانها – تربية الابناء- لعلنا نفيد منها جميعا في زيادة قربنا إلى الله ببرنا بأبنائنا ورعايتنا لهم.

تكلمت الخطب الماضية عن سبع مقدمات مهمة في تربية الأبناء:

1. تربية الأبناء فرض على الوالدين.
2. تربية الأبناء علم يحتاج إلى دراسة وسؤال أهل الاختصاص.
3. تربية الأبناء طريق تحتاج إلى صبرٍ وأناة.
4. تربية الأبناء مهمة تحتاج إلى معونة من الله تعالى.
5. تبدأ تربية الأبناء من اختيار الزوج المناسب .
6. إذا أردت أن تربي أولادك فلا بد من أن تتغير.
7. تربية الأبناء تتأثر بنوع النفقة أمن حلال جاءت أم من حرام.

وفي خطبة اليوم مقدمة ثامنة مهمة تقول:

التربية تعتمد التدرج لا الطفرة

أيها الإخوة:

يغيب أب عن تربية أولاده سنوات وسنوات ثم يتفطن فيرجع إليهم يُريد منهم التأدب والتعلم والتدين والتدرب وبأسرع وقت ممكن، والتربية الصحيحة تعتمد على التدرج لا الطفرة.

تنشغل أم عن تربية بناتها سنوات وسنوات بسبب عمل أو شجار سابق مع الزوج ، ثم تعود إليهم فتريد أن تعوضهم ما فقدوه من حنان وعاطفة، ومراقبة ومتابعة، وتوجيه وإرشاد ، تفعل ذلك مسرعة وتنسى بأن التربية الناجحة تقوم على التدرج لا الطفرة.

عَرَّف العلماء التربية فقالوا: هي إنشاء المرء وإصلاحه شيئاً فشيئاً حتى يبلغ حدَّ الكمال والتمام.

وقولهم: (شيئاً فشيئاً) معناه التدرج، وهو قاعدة مهمة جداً في التربية.

ويرى دارسو علم نفس الطفولة والمراهقة ودارسو علوم التربية أن الابن يحتاج في كل مرحلة من مراحل عمره إلى حاجات تربوية يمكننا أن نزرع فيه معارف وقيماً، وما التربية الناجحة إلا معرفة المربي لهذه الحاجات والمعارف، والزمن الصحيح لزرعها وتلبيتها، وممارسة هذه المعرفة.

وبناء على ذلك نرى التربية بناء متدرجا يضع لبناتِه الوالدان يوما فيوما وشيئا فشيئا حتى يكتمل البناء ويجمل. وهذا هو التدرج في التربية.

وليعلم كل أب وأم فارقا أولادهما فراقاً مادياً بسبب سفر أو طلاق أو غيرهما، أو فراقاً معنوياً بأن كانا معهما جسداً وليسا معهما قلباً وعقلاً وعاطفة، بسبب انشغال الأم بعملها والأب بأصدقائه وانشغالهما بأجهزة الاتصال والإعلام عن أولادهما، على سبيل المثال .

ليعلم هذان الأبوان المفارقان لأولادهما مادياً أو معنوياً أنهما خسرا مواد مهمة في تربية أبنائهما لن يستطيعا تعويضها – على الأرجح- لأن وقتها قد مضى.

كتبت إحدى المعلمات تقول: (غرس القيم والأخلاق من قبل المربي يستمر فترة طويلة وقد لا يرى نتيجة واضحة بادئ الأمر، فينتابه اليأس ، ولكن عليه أن يستمر في عمله ويعلم بأن التربية تعتمد على التدرج وبأن الله لا يضيع أجر الْمُحْسِنِينَ.

كيف تنمو شجرة الخيزران ؟

عندما نزرع بذور نبتة الخيزران في الأرض ونسقيها بالماء أسبوعا وأسبوعين وشهرا وشهرين وسنة وسنتين لا نرى سوى الأرض الجدباء، ونستمر في السقي والمتابعة، شيئا فشيئا ويوما فيوما؛ لتأتي المفاجأة في مطلع السنة الخامسة .

حيث تبدأ نبتة الخيزران بالظهور ثم تنمو بشكل سريع مترا كاملا كل يوم ، وبعد أسابيع قليلة يصل طولها إلى ثلاثين مترا تقريبا .

ولكن لماذا لم تنبت خلال الفترة الماضية ، لقد كانت تغرس جذورها عميقة في الأرض لتبني أساسا قويا ليستطيع ساقها الطويل أن يعلو في السماء من دون أن تسقط الخيزران) .

أيها الإخوة:

التدرج سنة إلهية في معظم الأشياء في هذا الكون الرحيب، بدءاً من خلق الإنسان والأطوار التي يمرُ بها إلى نهاية هذا الكون.

والتدرج واحد من أسس التشريع الإسلامي، فالقرآن الكريم لم ينزل جملةً واحدةً، بل نزل مُفَرَّقاً -منجماً- خلال ثلاث وعشرين سنة، تنزل الآية حيناً، وتنزل الآيتان، وتنزل العَشْر، وتنزل السورة.

والأحكام الشرعية لم تُفْرَض جملةً واحدةً، بل فُرِضَت على التدريج، وربما فُرِضَ الأمر الواحد متدرجاً، فالصلاة والصوم فُرضا بالتدريج، فقد كان الرجل يصلي ركعتين في الصباح ، وركعتين في المساء، ثم شُرِعت الصلوات الخمس بأوقاتها المعروفة، وكان الناس يصومون عاشوراء، ثم فُرِضَ صومُ رمضان، والربا والخمر حُرِّما بالتدريج، وهكذا

فالتدرج أساس من أسس التشريع الإسلامي، وهو أساس من أسس التربية الناجحة.

ويراد بالتدرج في التربية: أنك إذا أردت أن تنقل ابنك من النقطة (أ) إلى النقطة (ب) على خط مستقيم – مثلاً– أي إذا أردت أن تنقله من حالٍ لا تحبه ولا ترضاه إلى حالٍ تحبه وترضاه، وكانت النقطة (ب) بعيدةً عن (أ)، فبإمكانك تقسيم المسافة الطويلة إلى مجموعة مسافات قصيرة، فتنقله تدريجياً وعلى مراحل، نقلةٌ فنقلة، وبمجموع النَقْلات يكون قد تغيّر من حالٍ إلى حال.

فبالتدرج تخفف عنه ثِقَل المهمة، وتعينه على ما تريد، فتنجح في تربيتك، وينجح في نَقلته.

ابنك يخاف من الظلمة، ينصح أطباء النفس والمرشدون النفسيون بالمعالجة عن طريق (التعريض المتدرج)، ويقصدون به أن يجلس الوالد مع الطفل في غرفة نيّرة، ثم يحدث الأب ابنه عن الظلمة وعن أخبار سارة فيها ، ثم يذهب معه إلى زر الكهرباء ليطفئا النور سويا ويعودان ويجلسان معاً في الظلمة، وبعد حين يوقدان النور، ثم يطلب الأب من ابنه أن يذهب بمفرده ليطفئ النور وحده ويعود للجلوس عند أبيه، ومن ثم يطلب إليه الذهاب للغرفة المجاورة ليطفئ النور فيها ويعود، ومن ثم يبقى جالساً هناك وهو يسمع صوت أبيه،... وهكذا بالتدريج يعرض الوالد ولده للظلمة ويدربه على عدم الخوف منها.

إنها التربية القائمة على التدرج لا الطفرة.

حكي عن سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أن ابنه عبد الملك – وكان شاباً ورعاً تقياً كأبيه، متحفزاً للخير متوثباً إليه كسائر الشباب– قال لأبيه عندما ولي الخلافة: (يا أبتِ، مالك لا تُنْفِذِ الأمور، فو الله ما أبالي لو أن القدور غَلَت بي وبك في الحق).

فقال الأب: (لا تعجل يا بني، فإن الله ذَمَّ الخمر في آيتين، وحرَمَّها في الثالثة، وإني أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة، فيتركوه جملة، ويكونَ في ذا فتنة).

فالتربية تعتمد على التدرج لا الطفرة.

يقول أحد التربويين: (ومما يدخل في مراعاة حال المتعلم أو المتربي إعطاء كل مرحلة ما يناسبها من العلم والتربية فإن لكل مرحلة عمرية درجة من النضج، يصعب تجاوزها، كما أن لها مشكلات لا يمكن حلها إلا على نحو جزئي، ولذا فإن العجلة هي العدو الأول للتربية، هناك جوانب عديدة في شخصياتنا، لا ينضجها إلا الزمن... إن بعض المربين قد يعمد في بعض المراحل العمرية إلى زيادة الجرعة وهذا أحياناً قد يحدث شيئاً من التشوه التربوي ﴿ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ [الطلاق: 3]

أيها الإخوة:

وعـدتكم بأن أدلكم في كـل خطبـة من هـذه السلسـلة على كتـاب تربـوي لتفيـدوا منـه في متابعـة الدراسة والقراءة في تربية الابناء، وأريد اليوم أن أدلكم على ورقات خمس مهمة جدا في التربية، ويمكن أن نطلق عليها تربية الأبناء عند الإمام الغزالي.

راجعوا كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي فقد ذكر في المجلدة الثالثة منه في كتاب رياضة النفس، ورقات قليلات عنون لها بقولـه: (**باب الطريق في رياضة الصبيان في أول نشوئهم ووجه تأديبهم وتحسن أخلاقهم**) ذكر فيها التدرج في تلقين الأبناء الأدب، ودل المربي على الآداب التي يبدأ بها مع الصبي، ثم كيف يتدرج معه ليرقيه، وختم الورقات بقصة التستري مع خاله، فقال:

قال سهل بن عبد الله التستري كنت وأنا أقوم بالليل فأنظر إلى صلاة خالي محمد بن سوار فقال لي يوماً ألا تذكر الله الذي خلقك فقلت كيف أذكره قال قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مرات من غير أن تحرك به لسانك الله معي الله ناظر إلي الله شاهدي فقلت ذلك ليالي ثم أعلمته فقال قل في كل ليلة سبعة مرات فقلت ذلك ثم أعلمته فقال قل ذلك كل ليلة إحدى عشر مرة فقلته فوقع في قلبي حلاوته فلما كان بعد سنة قال لي خالي احفظ ما علمتك ودم عليه إلى أن تدخل القبر فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة فلم أزل على ذلك سنين فوجدت لذلك حلاوة في سري ثم قال لي خالي يوماً يا سهل من كان الله معه وناظراً إليه وشاهده أيعصيه إياك والمعصية.

فالتربية تعتمد على التدرج لا الطفرة.

أيها الإخوة:

كانت خطبة اليوم مقدمة ثامنة في تربية الأبناء؛ تربية الأبناء تعتمد التدرج لا الطفرة.

قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَمَسؤُولٌ عن رَعِيَّتِهِ، فالإمامُ رَاعٍ، ومَسْؤولٌ عَن رَعِيَّتِهِ، والرجلُ رَاعٍ في أهله، وهو مَسؤولٌ عن رَعِيَّتِهِ، والمرأَةُ في بَيْتِ زَوجِها رَاعيةٌ، وهي مَسؤولَةٌ عن رَعيَّتِها،...والرجلُ في مالِ أبيهِ راعٍ، ومَسْؤولٌ عن رعيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وكُلُّكُم مَسؤولٌ عن رعيَّتِهِ**»

البخاري ومسلم.

والحمد لله رب العالمين